# الإعجاز البياني في القرآن مظاهره ووسائل إدراكه

**د. عبدالحكيم أحمد عبدالله**

**قسم اللغة العربية – كلية التربية أبو عيسى**
**جامعة الزاوية**

**الملخَّص:**

يستهدف البحث دراسة الإعجاز البياني في القرآن الكريم الذي هو أصل أنواع الإعجاز وأظهر صوره، ويحاول تجلية المظاهر البيانية والملامح البلاغية التي يتجلى بها الإعجاز البياني القرآني، وذلك في لمحة شاملة بعيدة عن تعقيدات علوم البلاغة الصناعية التي لا يعرفها إلا المتخصصون، ولعل ذلك يكون مكمن الأهمية في هذا البحث، ولعل هذا الوصف الشامل للبلاغة القرآنية يقرب مفهوم الإعجاز إلى الناس على اختلاف مستوياتهم كما أن من ضمن مباحث هذه الدراسة كشف وسائل التعرف على إعجاز البيان في القرآن الذي هو معجزة القرآن الخالدة ودليل صدق نبيها –صلى الله عليه وسلم–

**Abstract :**

**This research aims to study the**

rhetorical miracle in the Qur’an, study the miraculousness, and enumerates its types, and studies specifically the Qur’anic rhetoric and the rhetoric manifestations in which the miracle is manifested.

In this brief study, the researcher also tries to mention the means that enable specialists and non-specialists to stand on the miraculousness of the Qur’an in terms of rhetoric and imagery, and thus they have sensed the remaining miracle of the Qur’an.

One of the results of the research is that it is possible to take several methods to realize the rhetorical miracle in the Qur'an and discover the secret of rhetoric in it.

**المقدمة:**

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيّد الأمم الذي أوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن معجزة القرآن الدالة على أنه من عند الله إنما هي ببيانه البديع، ونظمه الفريد الذي عجز خطباء العرب وشعراؤهم عن مجاراته ومعارضته، وهم فرسان ميدان البلاغة، ومن رام منهم ذلك رجع خائباً وشهد بالعجز على نفسه، ولما كان بيان القرآن هو معجزته الباقية وحجته على الناس فقد كان شغل العلماء الشاغل، وقد أثاروا قضية الإعجاز وصنفوا فيها الكتب وبحثوها من جميع جوانبها، ورغم كثرة التآليف والتصانيف فقد بقي هذا الموضوع ميداناً للبحث يحاول فيه كل عالم جهده، ويبذل فيه ما استطاع لا سيما أن إعجاز البيان مجال رحب وأمور خفية تستدعي الاجتهاد والاستنباط.

ولما أردت إعداد بحث في موضوع (إعجاز القرآن) لم أرغب في أن يكون موضوع البحث في الوجوه الصريحة من الإعجاز كالإعجاز العلمي أو التشريعي أو الغيبي، وآثرت أن يكون بحثي في الإعجاز البياني الذي يعد أخفي هذه الوجوه الإعجازية، وأعصاها عن الوصف، ولهذا اخترت هذا الإعجاز لأتناوله بالبحث لعلي أجد فيه ما يشفي، وأوضح الخافي فيه، ولما اطلعت على وجوه الإعجاز البياني والبلاغي عند من ألفوا فيه وجدتهم قد أسهبوا وأطالوا فيه النفس كثيراً، وتعددت مصنفاتهم، فمنهم من ذكر وجوه إعجاز البيان في القرآن مجملة، ومنهم من فضل فيها ونوّع، وفي العموم كان هذا الباب من الإعجاز دقيقاً خفياً بعيد المنال نوعاً ما لمن أراد أن يتعرف حقيقة الإعجاز وأن يتذوقه في أسلوب القرآن، فقصدت هذا الموضوع تحديداً حتى أستزيد منه وأستكشف، وسميت البحث (الإعجاز البياني في القرآن مظاهره ووسائل إدراكه)، ولم أعتمد في كتابته على النقل، وإنا حاولت أن أصوغ ما طالعته، وأجمع ما تفرق، وأقيد ما شرد مما أرى أنه يفي بالغرض ويحقق المقصود في جانب بحثي كان ومازال عويصاً على كل باحث غير أني حاولت تحديد وجوه الإعجاز البياني التي فارق بها القرآن غيره من البيان والتي من خلالها يسهل على كل متأمل أن يشرف على معجزة البلاغة القرآنية ويقف عليها بنفسه، لعل ذلك أسهل من تطويل الكلام في تقاسيم البلاغة وتفاصيل فنونها المتنوعة المتمثلة في القرآن والتي لا يحسنها إلا المتخصصون.

**ورأيت أن أدرس هذا الموضوع من خلال المباحث التالية:**

**المبحث الأول: تعريف الإعجاز البياني وأنواع الإعجاز.**

**المبحث الثاني: مظاهر الإعجاز البياني في أسلوب القرآن.**

**المبحث الثالث: إدراك الإعجاز البياني.**

وفي ختام المقدمة هذه أتوجه بالشكر إلى كل من ساعدني فيه ولو بنقاش يتعلق بموضوعه، وألتمس العذر مما قد وقع فيه من النقص والخلل.

## المبحث الأول: تعريف الإعجاز البياني وأنواع الإعجاز

### تعريف الإعجاز البياني لغة واصطلاحاً:

الإعجاز مصدر الفعل الرباعيّ أعجز يُعجِزُ، وأصله من الفعل الثلاثي عجز يعجز عجزاً، والعجز يأتي لمعاني الضعف والفوت والقصور وعدم القدرة[1]، والفعل أعجز المزيد بالألف يكون بمعنى سبق وفات، ومنه قوله الله –تعالى–: ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴾[2] أي: نفوته ونسبقه، والفعل (أعجز) الرباعي مزيد بالألف، وصيغته عند إسناده إلى القرآن تدل على أحد معنيين: الأول: الوجدان والمصادفة، تقول: أعجزتّ فلاناً أي: وجدته عاجزاً، مثل: طلبت من فلان العون فأعجزته، أي: وجدته عاجزاً، والثاني: التصيير والتحويل، تقول: أعجز زيدٌ عمراً، بمعنى جعله عاجزاً، مثل: تسلقت الجبل فأعجزني[3]، أي: جعلني عاجزاً، وإضافة الإعجاز إلى القرآن تكون بهذه المعاني جميعاً، فهو بمعنى فوته الناس أو وجدانه الناس قاصرين أو تصييرهم عاجزين، وهو على هذا من إضافة المصدر إلى فاعله.

فالعجز بالنسبة للمعجز فوتٌ وسبق، وبالنظر إلى العاجز ضعف وقصور[4].

والبيان لغة هو الظهور والوضوح[5]، والمقصود به عند إضافة القرآن إليه التعبير والنظم والبلاغة والأسلوب؛ لأن التعبير إظهار لما في النفس وإيضاح للمعاني، وعلى هذا فإن إعجاز القرآن البياني في الاصطلاح هو إظهار المعاني والتعبيرُ عنها بأسلوب يعجز الإنس والجن عن مجاراته والإتيان بمثله، وقد عرفه الشريف الجرجاني في كتابه (التعريفات) بقوله: "أن يؤدى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"[6]، وإعجاز القرآن هو معجزته التي تحدى بها الله العالمين، وقد عرّف السيوطي المعجزة بقوله: "هي أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة"[7]، وهذا وصف للمعجزة ينطبق على

القرآن، وعلى سائر معجزات الأنبياء؛ لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن أو شيء منه، وكذلك من الألفاظ القريبة من البيان في المعنى البلاغة، وهي في اللغة الوصول والانتهاء إلى الشيء[8]، وفي اصطلاح العلماء: مطابقة الكلام لمقتضي الحال، ويوصف إعجاز القرآن من جهة التعبير بأنه بياني وبلاغي ولغوي.

**أنواع الإعجاز في القرآن:**

تكلم العلماء في الإعجاز وأنواعه، واختلفوا في تعداد وجوه الإعجاز في القرآن، وأحسب أن الأصل في إعجاز القرآن إنما هو لبيانه الباهر، وبلاغته التي هي خارج مقدور البشر وفوق مكنتهم، وأما غير هذا من أنواع الإعجاز فمتممات، وأصول الإعجاز المتفق عليها هي:

1- الاعجاز البياني.
2- الإعجاز الحكمي التشريعي.
3- الإعجاز الغيبي.
4- الإعجاز العلمي[9].

**ثبوت الإعجاز:**

ثبت في القرآن في غير ما آية طعن الكافرين والمعاندين في القرآن، وقد ذكر الله -عز وجل- طعنهم هذا، وواجههم بالتحدي والتبكيت، ولكنهم مع عنادهم وبحثهم عن كل وسيلة لإسقاط ما أتى به القرآن لم يأتوا بشيء يسقطه، وخرسوا أمام هذا التحدي، وعجزوا، ولم ينقل لنا من كلام بلغائهم وفصحائهم ما يجاري أسلوب القرآن أو يدانيه، فثبت بذلك إعجاز القرآن من جهة البلاغة والبيان، وثبت عجزهم وقصورهم وضعف قواهم عن الإتيان بمثله، وفيما يلي ذكر لبعض هذه الآيات التي تضمنت هذا التحدي الصارخ:

قال الله -عز وجل-: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[10]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[11]، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[12]، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[13]، وقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي

رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[14]، وقد قام دليل العقل كذلك على صحة هذا التحدي الثابت بالنقل، وذلك أنه مع التحدي والتبكيت والتعجيز فإن المعاندين والملحدين والمشككين رغم تطاول الزمان واشتداد أمرهم وتعاظم استنكارهم لم يفلحوا أن يقارعوا القرآن بمثله أو بما هو قريب منه، وهذا برهان الواقع على إعجازه، كما أن التأمل في نظم القرآن واستكشاف طرائقه البلاغية يفضي إلى التسليم بفوقيته وعجز القدر البشرية عن مجاراته أو تسوّر حماه.

**المبحث الثاني: مظاهره الإعجاز البياني**

تكلم العماء كثيراً في هذا الباب، وأدلى كلٌّ بدلوه، واجتهدُوا بما في وسعهم، وتسابقوا في هذا الميدان حتى تقاصرت همُمهم عن إدراك الغاية فيه، فالوقوف على الوجوه التي تتضمّن الإعجاز أو يتضمنها من الصعوبة بمكان بحيث ليست في طوق إنسان مهما كان لا سيّما جهة البيان؛ لأن البيان وبلاغة التعبير عما في الوجدان معنى يدرك، ولا يمكن ملامسته، وهذا هو مكمن الخفاء في هذا الباب، فالقرآن معجز، ووجه من إعجازه بيانه وبلاغته، ولكن ما هو وجه البيان الذي باين به وارتفع عن سائر الكلام؟ وكيف للقارئ والسامع أن يصف ويحدد أنواع البيان في أساليب القرآن؟ وهل يمكن لنا أن نضع معايير ومقاييس يمكن بها أن نعرف اختلاف جنس كلام القرآن وأنواعه عن أجناس كلام غيره وأنواعها في التعبير والتصوير؟ وهل يمكن وضع ما تكلم فيه السابقون من صور الإعجاز في عبارات تكون سهلة الفهم قريبة المعنى؟

وبما أن هذا الباب من الدراسة مفتوح منذ بدأ درسُ هذه القضية، وما يزال كذلك حتى اليوم، وغالب ما فيه اجتهادات ومحاولات فإن هذه الوجوه قد كثرت وتنوعت، واختلفت عبارات الناس في تناولها، ومرد ذلك أن بعض المصنفين يذكرها إجمالاً، فتأتي قليلة، ويذكرها آخرون على وجه التفصيل، فتأتي كثيرة وكأنك حين تطالعها تتصفح كتاباً من كتب البلاغة كثير التفاصيل والتقاسيم، ولست هنا صدد الحكم على هذه الوجوه، ولكن القصد منم البحث هنا هو محاولة ذكر مظاهر الإعجاز في بيان القرآن ونظمه وأسلوبه على وجه الإجمال، وهي مظاهر يكمن فيها الإعجاز، ويتجلّى بها، وعندما يطالعها الدارس يدرك أن هذه المظاهر البلاغية والأوصاف البيانية لا توجد ولن توجد في كلام مخلوق من الإنس أو

الجن؛ لأنها خارجة عن قدرتهم وفوق طوقهم، فيثبت بذلك الإعجاز ويستقر في نفس كل من تتبّع وتفحص.

ومظاهر الإعجاز البياني لا يمكن حدُّها والإحاطة بها؛ لأن إعجاز القرآن لا يمكن الإحاطة به، ولذا صرّح غير واحدٍ ممن درس الإعجاز بأنه لا نهاية لوجوه الإعجاز في القرآن(15).

ولا أدّعي هنا أني سآتي بما لم يأت به السابقون أو أني سأسجّل ما لم يسجله أساطين البلاغة أو أذكر ما لم يذكروه، فهذا معترك صعب تنافس فيه العلماء، وتقارع فيه البلغاء، وأفنوا أعمارهم يبحثونه ويتدارسونه، وهنا أريد أن أنقل كلام الأديب البارع محمود شاكر في توصيف هذه القضية على وجه التخصيص، قال: "وهي عندي أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها العقل الحديث كما يسمّونه حتى بعد أن يتمكن من إرساء كل دعامة يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وبصدق الوحي، وبصدق التنزيل"(16).

لقد كان الروع الذي أخذ محمداً –صلى الله عليه وسلم– في غار حراء حين سمع أول كلمات الوحي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ...﴾(17) كان هذا الروع "أول إحساسٍ في تاريخ البشرية بمباينة هذا الذي سمع للذي كان يسمع من كلام قومه، والذي كان يعرف من كلام نفسه، ثم حمي الوحي وتتابع..."(18).

فما هي المظاهر البيانية التي يتجلى بها إعجاز القرآن؟ وكيف لنا أن نثبت أن هذه المظاهر وتلك الوجوه من البيان القرآن لا يحويها كلام بشر فيما سبق، ويستحيل عليهم فيما يأتي من الزمان أن يأتوا بمثله، أو ينسجوا على منواله، أو يقتفوا خطاه ويترسموا النهج الذي قام عليه؟ كيف يتحسس المرء أسلوب القرآن ويتذوقه فيحزم أن هذا البيان معجزة خالدة باقية خارقة لنواميس التعبير، وحجة دامغة لكل منكر للنبوة طاعن في الرسالة متشكل في أصل الدين؟

هذه جملة أسئلة تجعل الإنسان مصدوماً مذهولاً بجدارتها، تلفت نظره إلى أهميتها، وتستحث همته إلى استكشاف هذه الوجوه، وبذل قصارى الجهد في معرفتها؛ ولذلك فإن المقصد من بيان وجوه الإعجاز في بيان القرآن هو فك رموز هذا السرّ العظيم الكامن في القرآن، وهو دليل صدقه، ومعجزة نبيه الخاتم، وهو الذي حارت فيه العقول، وإن كشف هذه الوجوه حتى تكون دانية من الأفهام لن يكون فتحاً جديداً فإن العلماء قبل قد حاولوا هذا

الأمر جاهدين، وأصاب منه كل بحسب اجتهاده، ولكن بحثي هذا سيكون محاولة مقصرة للتعبير عن المعاني التي وصفها الأولون لتكون في المتناول جمعاً من أقوالهم على وجه الإجمال؛ حتى يؤدي تعرف هذه المظاهر وفهمها إلى التسليم بطلاقة البيان في نص القرآن، وحتى لا يكون تذوقها خاصاً بطلبة البلاغة وعلم اللغة المتضلعين، وحتى تكون مجملة عامة مجردة من التفاصيل والتفاريع خفيفة على غير المتخصصين.

**وإليك هذه الوجوه:**

أولاً– غرابة الأسلوب وانسجام الكلمات وتشاكلها في التركيب، والقصد من الغرابة مخالفة المألوف من الأساليب[19] واستقلال النص القرآني بنمط خاص في تركيبه وتتابع كلماته، فأسلوب القرآن ليس شعراً موزوناً مقفى، ولا شعراً موزوناً غير مقفى، ولا شعراً ذا إيقاعات متناسبة، ولا نثراً مسجعاً ولا نثراً مرسلاً غير مسجوع[20]، ورغم ذلك تنساب كلماته في النطق وتجري متسقة متشاكلة، لا يعلم الناطق بها أجاءها الانسياب من جهة إيقاع في وزنها اللفظي، أم من جهة معنى وروح خفية في الألفاظ؟ تنساب كلمات القرآن في النطق حتى إذا ما سقطت منه كلمة أو عبارة اختلّ التركيب في اللفظ واختلّ المعنى، واستشعر ذلك القارئ والسامع.

ومهما حاول المحاولون أن يجعلوا لهذا الانسجام أوزاناً أو إيقاعات ينضبط بها أو بحوراً يجري عليها أعياهم ذلك، ولم يتأت لهم، وهذا معنى خفي لا يوجد إلا في نص القرآن دون أن يكون في إيقاع اللفظ ما يفسّر هذا التناسق البديع، وكل آي القرآن شاهد ذلك، فاقرأ مثلاً قول الله –تعالى–: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[21] تجد ما ذكرته وتتحسسه في نواحي الآيات.

**ثانياً– سهولة مأخذ الكلمات وجمال جرسها ثم تآلفها في سبك جميل وحبل رائع:**

هذا المظهر عام في كل كلمات القرآن وعباراته، فكلماته فصيحة سهلة خالية من التنافر في الأصوات، وتراكيبه في غاية العذوبة والسلاسة لا تنبو عن الأسماع، تتشنف لها

الآذان ويتلذذ بها الحس، ولا يخرج عن هذا الوصف شيء من القرآن في قليل أو كثير، فجمع أسلوب القرآن فصاحة الألفاظ، وجمال التراكيب، بل إن لفظة (ضِيزَى) التي وردت في القرآن في قول الله –تعالى:﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[22] اعتبرها بعضهم غريبة في غير سياق القرآن، ولكنها لما جاء في أسلوب القرآن منسجمة مع معناها انتفت عنها هذه الصفة، وكأن "غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى"[23] وبذلك تمكنت هذه الكلمة من موضعها في النسج القرآني.

**ثالثاً**– سلامة المعاني في القرآن وصحتها، فهي تأتي في عرضٍ بديع خالٍ من التناقض، وتتنوع المعاني المصورة في القرآن، فتجتمع في العرض الموعظة والقصص والحجة البالغة والحقيقة الكونية والصفات الالهية والمعاني الربانية، تجتمع في النسق اللفظي الواحد الإشارات والتداعيات الكثيرة التي تؤكد معنى واحداً، ولا يترتب على ذلك تشتت في المعاني أو غرابة مشينة للتركيب، وانظر مثلاً قول الله –تعالى– : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[24] تجد شاهد ما تم ذكره، ففي الآيات الكريمات تتنوع المعاني الراقية من الوعظ والتذكير بالنعم والإنكار وحث العقل على التأمل والتفكير وعرض الحجج وحقائق الكون، وتتشابك هذه المعاني السليمة في نظم واحد يأخذ بعضه برقاب بعض ويتماسك كالبنيان الواحد يشد الانتباه ويتشبع بما لن تجد له مثيلاً في كلام الأدباء والشعراء والبلغاء مهما بلغت منزلتهم، وليس لنا إلا أن نقف أمامها حائرين عاجزين معترفين بقصورنا وحسرنا عن مقارعته.

**رابعاً**– مناسبة الألفاظ لمعانيها، ومناسبة كل فن من فنون القول لموضعه الذي ورد فيه، فجرس الكلمات مناسب لمعانيها، والتراكيب متناسبة مع مدلولاتها، فالإيجاز في موضعه لا يناسبه الإطناب، والإطناب في موضع لا يناسبه الإيجاز، والحذف مناسب لموضعه، والتقديم مناسب لموضعه، والتكرار مناسب... إلخ، فمثلاً في قول الله –تعالى–: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا

تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ...﴾[25] مع الآيات تكرار وإسهاب في تأكيد المعنى مناسب لموضعه؛ لأنه في معرض الاحتجاج ونصب الأدلة الشاهدة على ضلال طريق الكفار.

**خامساً**– جريان القرآن على وتيرة واحدة من البيان الكامل وطلاقة التصوير وحسن التعبير دون اختلاف أو تفاوت[26] في جميعه رغم كثرة تصرفاته وتنوع أغراضه، وهذه الخصيصة لا تتأتي لكلام بشر مهما بلغ شأنه؛ فإن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في العلو والنزول والحسن والقبح، والصحة والفساد؛ ولهذا عرف عن كثير من البلغاء نقص في مواضع وتفاوت في أغراض وتناقص وخلل في المعاني[27]، وبرع بعضهم في باب من القول، ولم يبرع في غيره، وأحسن في غرض، ولم يحسن فيما سواه، وهذا فارق واضح جلي بين كلام الله وكلام غيره.

**سادساً**– سلامة معاني القرآن من مصادمة الفطرة السوية، والحقائق الكونية، والأصول المنطقية، والطرائق الحكمية، فلا سبيل إلى الطعن فيه إلا من قبيل التمرد على حكم الخالق، وسّرح بصرك في آي القرآن فلن تجد إلا الموعظة الحسنة التي تذكر الإنسان بسبب خلقه، وتحذره من سوء عاقبته، وتكسر فيه سورة الغضب الجامع، واستبداد الشهوة، وميل الغريزة الحيوانية، وتنادي فيه الفطرة النقية، والقلب السليم، والأخلاق السامية، وتعرض عليه حقائق الوجود، وتحثه إلى الخير.

**سابعاً**– مناسبة البيان المتناهي لنظم القرآن للعقول بكل مستوياتها واختلافاتها[28]، فالأمي يسمع القرآن ويفهمه ويتأثر بمعانيه، والمقتصد يتزود منه بحسب فهمه ومبلغ علمه، ويجد فيه العالم الراسخ بغيته وما يسدّ نهمته بحسب علو كعبه، ويجد فيه العابد ما يشحذ همته، ويجد فيه المتأمل ما يقلدح فكرته، ولا يستعصي القرآن أبداً على قارئ، ولا يستغلق بابه على قاصد.

**ثامناً**– اكتناز تراكيب القرآن بالمعاني المتجددة التي لا تنضب، فتراكيبه مليئة بالمعاني كالشجرة المثمرة الكريمة تجود بالثمر مرة بعد مرة كلما تعهدتها بالرعاية وصرفت إليها مزيد العناية، وألفاظه لا تخلق على كثرة ترادها، وهذا الوجه يدركه العالم المتبحر، والبليغ المتعمق، ومع وجازه الألفاظ في القرآن تدل عباراته على معاني لا يمكن حصرها[29].

**تاسعاً**– حسن ترتيب المعاني الذي يطابقه حسن ترتيب الألفاظ، فالألفاظ في ترتيبها متطابقة مع المعاني في ترتيبها في النفس، ولذلك كان نظم القرآن على الكمال من حيث التلاؤم بين مبانيه ومعانيه، والترابط الوثيق بين ألفاظه ودلالة معانيه النحوية على المقاصد أحسن دلالة، فتأخذ كل كلمة موقعها الجدير بها، ويكتسي كل معنى اللفظ الجدير به بحيث لا يصلح اللفظ المعبر به إلا للمعنى المعبر عنه على صفة الحسن والجلال، فغاية البلاغة أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أحق بالأداء وتعبر عنها باللفظ الذي هو أحق بالكشف وإظهار حسن النظم[30]، فلو وضع اللفظ لغير هذا المعنى لكان قاصراً، ولو وضع غير هذا اللفظ محله لما كان معجزاً، يقول ابن عطية: "لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"[31] ، وهذا دليل النظم القرآني الذي رأي عبد القاهر الجرجاني أنه سر الإعجاز، وأصل له وفصل في كتابه (دلائل الإعجاز)[32].

**عاشراً**– مع ما يتميز به خطاب القرآن من الجزالة والفخامة وغاية البلاغة تجده قريباً من الأفهام قويها وضعفيها، واضحاً للناس عوامهم وخواصهم، يجد فيها العوام ما يبلغهم، ويستنبط منها الخواص ما يصعب على غيرهم، ويجدون فيه ما يقنعهم، فهو مائدة عظيمة، لكل طالب فيها يجد فيها بغيته وينال نهمته، "يفهم العامة من جليلها ما يقنعها ويلزم الحجة، وتفهم الخواص من إثنائها ما يربي على أدركه فهم الخطباء"[33].

**المبحث الثالث: إدراك إعجاز القرآن**

كيف يدرك المرء أن القرآن معجز؟ هذا السؤال يحمل المقصد الأسمى من بحث الإعجاز؛ لأن المرء إذا فهم معنى الإعجاز وتحققه في القرآن فقد وقف على عين المعجزة التي أيّد بها الله –عز وجل– نبيه محمداً –صلى الله عليه وسلم– ورآها بقلبه وتعقلها بلبه، وتذوقها بحسِّه، وتحققت له في نفسه معجزة الإسلام الخالدة؛ لأن الله جعل معجزة نبيه بياناً ساحراً حتى تكون باقية أبداً، وحتى لا تكون من جنس معجزات الأنبياء السابقين المادية كعصا موسى وناقة صالح... تنقضي بانقضاء زمنها، وإن كان الله –عز وجل– قد أيد محمداً –صلى الله عليه وسلم– في عهد النبوة بكثير من الخوارق المادية والمعجزات التي تدل على صدقة وتشهد لنبوته.

يكاد العلماء يتفقون على أن الإعجاز في القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، وهذا ما نقله غير واحدٍ منهم[34]، وإذا ما اعتبرنا أن إدراك وصف الإعجاز غير ممكن فكيف لنا أن ندركه؟ لا جرم أن ذلك بالإمكان وإلا انتفى الإعجاز.

إن إدراك الإعجاز واقع وممكن لا محالة، وهو لازم من لوازم كونه معجزاً، ولكنه يعرف بالتذوق ويدرك بالتأمل، ويتوصل إليه بمعرفة آثاره كالحياة التي نعجز عن وصفها لكننا نجزم بوجودها ويدرك آثارها في حركة الحيِ وانتقاله ونمائه، والبيان في كل كلام يدرك إدراكاً، ولا يمكن لنا أن نضع معياراً تقيس به بلاغة البلغاء، وفنون البلاغة التي تكلم فيها الأولون والآخرون ماهي إلا أدوات تساعد مستعملها على الوقوف على مواطن الحسن في الكلام دون أن تضع معياراً لقياس درجته.

وقد اجتهدت في هذا المبحث في تقييد طرائق ومنصات يشرف بها الإنسان على إعجاز البيان في نظم القرآن، ومن انفتح له باب أو طريق منها فهو فتح الله وفضله، وهي على النحو التالي:

1- إشراق الروح بالمعاني الربانية والأنوار الإلهية التي تسطع في القرآن، وتدركها النفس في كل جوانبه، وتستشعرها في نواحيه، فيفيض على النفس من أنوار القرآن ما يكشف عنها الحجب، ويرفع عنها الغشاوة، ويشدها شداً، ويعمل فيها ما لا يعمله غيرها من سائر الكلام.

2- إدراك وجود الإعجاز في أي القرآن بتذوق بليغ الكلام، وتنمية الحسن فيه، واستخدام أدواته بمعرفة فنون البلاغة وأساليب البيان؛ لأن كشف أصول كل صنعة تهدي إلى كشف حقيقتها، وأولى وسائل معرفة الكلام البليغ معرفة البلاغة وتعرّف فنونها[35] وإن كان الرافعي يقلل من شأن الصنعة البلاغية في معرفة الإعجاز؛ لأنها وسائل فقط[36].

3- مقارنة كلام الله بكلام البلغاء –ولا وجه للمقارنة في الحقيقة– وذلك ليظهر فضل القرآن في البيان على سائر الكلام، ويكون ذلك بوضع آيات القرآن في مقابل الكلام البليغ مما قاله الأدباء أو الشعراء فيما كان موضوعها واحداً أو متقارباً، وعندما تظهر مزايا التعبير القرآني من الوجوه البلاغية التي لا يمكن أن تكون محلاً للخلاف يقف الناظر على إعجاز القرآن، ويرى بعين نقله فضله، ويدرك بإحساسه ذلك، وقد استعمل هذه الوسيلة غير واحد من العلماء الذين درسوا الإعجاز.

4- هيبة القرآن في النفوس والروعة التي تأخذ الأسماع وتعتري الوجدان عند الإنصات له، وقد تأخذ هذه الهيبة من لا يفهم معانيه[37]، قال الله -تعالى-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[38].

**الخاتمة**

وفي ختام هذا البحث أنتهى إلى جملة نتائج أذكرها على النحو التالي:

1- أن بيان القرآن وبلاغته التي لا حد لها هو أصل الإعجاز في القرآن الكريم، وهو المظهر الذي يتجلى في كل نواحيه، ويستمر في كل آياته، وأما أنواع الإعجاز الأخرى فمتممات لهذا الأصل.

2- أن تقريب الإعجاز القرآني من أفهام الناس وتيسير سبل التعرف عليه مما هو مطلوب من الباحثين، وهو أولى من بحث التفاصيل التي لا يتقنها إلا المتخصصون.

3- الإعجاز البياني في القرآن يتجلى لكل متأمل في صورة مظاهر أسلوبية وملامح بيانية لا يملك من وقف عليها إلا أن يشهد بها، ويسلم بروعة البيان في القرآن.

4- مع كثرة ما كُتب في الإعجاز قديماً وحديثاً فإن باب البحث في الإعجاز واستنباط أسراره ما يزال مفتوحاً لكل باحث؛ وذلك لأن وجوه الإعجاز في القرآن لا حدود لها.

5- إدراك إعجاز القرآن من أهم ما يجب تقريره؛ لأن إدراك الإعجاز يعني الوقوف على معجزة هذا الدين المستمرة، وهي دليل صدق نبيه -صلى الله عليه وسلم- ومن وسائل إدراك الإعجاز إشراق الروح ببيان القرآن، والروعة التي تأخذ النفس عند سماعه، والتعرف على الوسائل البلاغية والطرائق الفنية التي توصل إليه.

**هوامش البحث:**

(1) انظر تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1987: مادة (عجز)، ولسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، تحقيق: جماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ: مادة (عجز).

(2) سورة الجن: من الآية 12.

* انظر: تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضي الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المتخصصين، وزارة الإرشاد، الكويت، دون رقم طبعة، 2001: مادة (عجز).

(4) انظر: لسان العرب لابن منظور: مادة (عجز).

(5) انظر: المرجع السابق: مادة (بين).

(6) التعريفات لعلي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، حققه: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983: ص47.

(7) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون رقم طبعة، 1974: 238/2.

(8) انظر: لسان العرب لابن منظور: مادة (بلغ).

(9) انظر: التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، دون رقم طبعة، 1984: 104/1، ومباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 2005: ص113.

(10) سورة الطور: 33- 34.

(11) سورة النحل: 103.

(12) سورة هود: 13- 14.

(13) سورة يونس: 38.

(14) سورة البقرة: 23- 24.

(15) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1988: 5/1.

(16) مداخل إعجاز القرآن لمحمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، الطبعة الأولى، 2002: ص156.

(17) سورة العلق: 1-2.

(18) مداخل إعجاز القرآن لمحمود محمد شاكر: ص157.

(19) انظر: الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره لعبد الغني محمد سعد، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، دون رقم طبعة، 1989: ص112.

(20) انظر: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم لسامي محمد هشام حرير، دار الشروق، عمان، الطبعة الأولى، 2006: ص65.

(21) سورة الأعراف: 175- 177.

(22) سورة النجم: 22.

(23) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به: الدكتور درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، دون رقم طبعة، 2003: ص183.

(24) سورة فصلت: 9- 11.

(25) سورة الواقعة: 58- 64.

(26) انظر: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم لسامي محمد هشام حرير: ص67.

(27) انظر: الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره للدكتور عبد الغني محمد بركة: ص141.

(28) انظر: مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم: ص173.

(29) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبد العزيز المصطفى، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، 1992: 367/1.

(30) انظر: بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1979: ص107.

(31) انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، علق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، 1992: ص359 وما بعدها.

(32) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ: 52/1.

(33) معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي: 346/1.

(34) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: 5/1.

(35) انظر: إعجاز القرآن وجوهه وأسراره لعبد الغني محمد بركة: ص256.

(36) كتاب الصناعين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، دون رقم طبعة، 1986: ص167.

(37) انظر: معترك الأقران للسيوطي: 182/1- 183.

(38) الحشر: 21.